الفصل الثالث

في شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الإلهي

وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ بما يسمونه الوحي النفسي

خلاصة رأي هؤلاء الماديين: أن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية، وتقاليد وراثية رديئة، يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية، فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء، فكل ما يخبر به النبي من كلام أُلقي في روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده.

يقول هؤلاء الماديون: نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع وإنما نقول: إن منبع ذلك من نفسه، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب، الذي يقال إنه وراء عالم المادة والطبيعة، الذي يعرفه جميع الناس، فإن هذا (الغيب) شيء لم يثبت عندنا وجوده، كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت.

ويضربون مثلاً لهذا الوحي: قصة جان دارك، الفتاة الفرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قد سرت شبهته إلى كثير من المسلمين المرتابين، الذين يقلدون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها.

وإنني أفتتح الكلام في إبطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على (جان دارك) فقد أُلقي إليَّ سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة 788 من المجلد السادس من المنار (1321) وهذا نصه:

شبهة على الوحي

حضرة الأستاذ الرشيد:

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت إلى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده -حيث وقع اختياري عليها- وقرأت فيها بابي (حاجة البشر إلى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيهاً معقولاً، غير أن الحاجة إلى الشيء لا تستلزم وقوعه، وكذا إمكانه وعدم استحالته عقلاً لا يقتضي حصوله. ثم ما ذُكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلائل الأعمال، وبوقوع الخير للناس على يديه، وهو دليل نبوته وتأييد بعثته، فليس شيئاً، فإنه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته، صادقاً في دعوته -أعني معتقداً في نفسه- سبباً في نهوض أمته، ولا يكون كل ذلك مدعاة إلى الاعتقاد به والتسليم له.

وقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي، إذ كانت مقهورة للإنكليز أن بنتاً تُدعى (جان دارك) من أجمل النساء سيرةً وأسلمهن نيةً، اعتقدت -وهي في بيت أهلها بعيدة عن التكاليف السياسية- أنها مرسلة من عند الله لإنقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي، فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها إلى رياسة جيش صغير، وغلبت به العدو فتلاً، ثم ماتت غب نصرتها ميتة الأبطال من الرجال، إذ خذلها قومها، ووقعت في يد عدوها، فألقوها في النار حية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسماً يعبق نشره وتضوع رياه، وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرقي بعيداً.

فهل نجزم لذلك أن تلك البنت نبية مرسلة؟ ربما تذهبون إلى أن عملها لا يُذكر مقارناً بما أتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول: هل هناك من ميزان نزن به الأعمال النافعة، لنعلم إن كانت وصلت إلى الدرجة التي يجب معها أن نصدق دعوة صاحبها؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلاً على أن يكون أكبر الناس فعلاً، وأبقاهم أثراً، واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك إلى التيقن من رسالته؟

أظن أن هذا كله –مضافاً لغيره– يدعو إلى الترجيح ولا يستلزم اليقين أبداً على أنني أنتظر أن تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعونني به أو تزيدونني إيضاحاً. ينكشف به الحجاب، وتنالون به الثواب. هذا وإني أعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي، ولكنهم يتحفظون في الكتمان، ويسألون الكتب خشية سؤال الإنسان ولكنني لا أجد في السؤال عاراً، وكل عقل يخطيء ويصيب، ويزل ويستقيم.

أحد قرائكم

جواب المنار

لقد سَرَّنَا من السائل أنه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الإذعان فيسترسل في تعدي حدود الدين إلى فضاء الأهواء والشبهات التي تفسد الأرواح والأجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ إلى البحث في الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم، بما يكشف الشبهة، ويقيم الحجة، وإن كثيراً من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند أول قزعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم لأنهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صاداً لهم عن الانهماك والاسترسال فيها، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطري، كما أمات النشوء في الجهل برهانه الكسبي.

أرى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر في المقاصد والنتائج، لذلك تراه مسلماً المقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما، فإذا هو عاد إلى مبحث (حاجة البشر إلى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله، وأنه أقام

الكون على أساس الحكمة البالغة والنظام الكامل، فإنني أرجو له أن يقتنع. ثم إنني آنست منه أنه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) أو لعله قرأه ولم يتدبره. فإنه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة ويبني الشبهة عليه وإنما بناها على جزء من أجزاء المقدمات، وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام. وإنني أكشف له شبهته أولاً، فأبين أنها لم تصب موضعها، ثم أعود إلى رأيي في الموضوع.

إن (جان درك) التي اشتبه عليه أمرها بوحي الأنبياء لم تقم بدعوة إلى دين أو مذهب تَدَّعي أن فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين، ولم تأتِ بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها، وإنما كانت فتاة ذات وجدان شريف، هاجه شعور الدين وحرَّكته مزعجات السياسة، فتحرك، فنفر، فصادف مساعدة من الحكومة، واستعداداً من الأمة للخروج من الذل الذي كانت فيه، وكان التحمس الذي حركته سبباً للحملة الصادقة على العدو وخذلانه، وما أسهل تهييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات، وبما هو أضعف منها، فإن نابليون الأول كان يسوقهم إلى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها، ككلمته المشهورة عند الأهرام.

وأُذَكِّر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها، فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف العربية (للبستاني) ما نصه:

«كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل إلى العين ومنها إلى البيت، وكان الناس في جوار دومري (أي بلدها) متمسكين بالخرافات ويميلون إلى حزب أورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا، وكانت جان تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع، تحب أن تتأمل في قصص العذراء، وعلى الأكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت، وهي أن إحدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها. ولما كان عمرها 13 سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعة وتتكلم عن أصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها، ثم بعد ذلك ببضع سنين خُيل لها أنها قد دُعيت لتخلص بلادها وتتوج

ملكها. ثم أوقع البرغتيور تعدياً على القرية التي وُلدت فيها، فقوى ذلك اعتقادها بصحة ما خُيل لها». ثم ذكر بعد ذلك توسلها إلى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها، وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الإنكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان، وأنها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة أسبوع، وذلك سنة 1429، ثم ذكر أنها بعد ذلك زالت أخيلتها الحماسية، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة 1430 فانكسرت وجُرحت وأسرت.

فمن ملخص القصة: يعلم أن ما كان منها إنما هو تهيج عصبي، سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها مَن نشأت بينهم، مع معونة التحمس الديني والاعتقادات بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة في زمنها، وهذا شيء عادي معروف السبب، وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر، كمحمد أحمد السوداني، والباب الإيراني (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها أبعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين، وإن كانت أسباب النهضة متقاربة، فإن هذين كانا كأمثالهما يدعوان إلى شيء (ملفق) يزعمان أنه إصلاح للبشر في الجملة.

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن، المعروفة السبب، التي لا دعوة فيها إلى علم ولا إصلاح اجتماعي، إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الإنسان والحيوان الأعجم، التي لا حجة تدعمها، ولا معجزة تؤيدها، التي اشتعلت بنفخة، وطفئت بنخة؟ أين هي من دعوة الأنبياء التي بيَّن الأستاذ الإمام أنها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه] فسار الإنسان بذلك إلى كماله، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى؟ وأين دليلها من أدلة النبوة؟ وأين أثرها من أثر النبوة؟

إن الأمم التي ارتقت بما أرشدها إليه تعليم الوحي إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وإن فرنسة لم تَرْتَقِ بإرشاد (جان درك) وتعليمها، وإنما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته، وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستولت

أمته بسببه ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها، وحكمة حكمائها، وصنع صناعها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد إليه، فلا يقال: إن ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عُدَّ سبباً بعيداً، فهو شبيه بالسبب الطبيعي، كهبوب ريح تهيج البحر فيغرق الأسطول وتنتصر الأمة.

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفتت، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الأرجاء، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء: أميٌّ يتيم قضى سن الصبا وشرخ الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله صيحة: إنكم على ضلال مبين، فاتبعونِ أهدكم الصراط المستقيم، فأصلح -وهو الأمي- أديان البشر: عقائدها وآدابها وشرائعها، وقلب نظام الأرض، فدخلت بتعليمه في طور جديد؟

لا جرم أن الفرق بين الحالين عظيم، إذا أنعم النظر فيه العاقل الحكيم، ولا سعة في جواب سؤال كهذا لتقرير الدليل على النبوة بالتفصيل، وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد، ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الأمالي الدينية في المنار، ولا سيما الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات، على صدق النبوات) وإن كان يصدق على رسالة التوحيد المثل «كل الصيد في جوف الفرا[1]». فإن بقيت عنده شبهة فالأولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فإن المشافهة أقوى بياناً، وأنصع برهاناً، ونحن نعاهده على أن نكتم أمره، وإن أبى فليكتب إلينا ما يظهر له من الشبهة على ما في الرسالة والأمالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن

(1) الفرا -بفتح الفاء مقصوراً- اسم لحمار الوحش، وهو خير ما يصاد لكبره وكثرة لحمه وجودته. وأصل المثل أن ثلاثة رجال خرجوا للصيد فاصطاد أحدهم أرنباً والآخر ظبياً، واصطاد الثالث حمار وحش، فقال لهما وقد أعجبا بما أصابا (كل الصيد في جوف الفرا) أي كل ما يصاد يصغر دونه، كأنه يغيب في جوفه.

يكون مقنعاً، على أن المشافهة أولى كما هو معقول، وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين والمرتابين. اهـ جوابنا في المنار[1].

هذا وإن ما بينه الأستاذ الإمام في إثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العلي الحكيم الفاعل المختار إلا أن يقبله ويذعن له، فإنه بَيَّن أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو ﴿أَلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ [طه] ولا يفهمه حق الفهم إلا من أوتي نصيباً من علم الإجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد، ونصيباً آخر من بلاغة اللغة العربية. وإن نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن إثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة، وهو ما قهر عقول علماء الإفرنج على تصديق دعوته، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتي، ونقفي عليه بإثبات بطلانه.

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل (أميل درمنغام) الشبهة التي أجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كُتَّاب الإفرنج، حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين. وإنه لحسن الثناء ولكنه يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء، فإن كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية: إنكم فصلتم قميصاً من رقاع العهد القديم، وألبستموها للمسيح عليه السلام، فنحن نقول لهم: إنكم فصلتم قميصاً آخر مما استنبطتم من تاريخ الإسلام لا من نصوصه، وحاولتم خلعها على محمد ﷺ، وإنني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام، وما بلغني عن كل أحد منهم، ثم أكر عليها بالنقض والدحض، وأبدأ بمقدماتها وهي عشر:

(1) الظاهر أن ذلك السائل قد اقتنع بجوابنا إذ لم يكتب لنا بعده شيئاً وكذلك الأستاذ الإمام فقد رضي به وأعجبه.

المقدمة الأولى لشبهة الوحي النفسي

دعوى الأخذ عن بَحيرى الراهب

قالوا: إن محمداً لقي بَحيرى الراهب في مدينة بُصرى بالشام، وقالوا إنه كان نسطورياً من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث، وإن محمداً لا بد أن يكون علم منه عقيدته. وقالوا في بحيرى أيضاً إنه كان عالماً فلكياً منجماً وحاسباً وساحراً. وإنه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هادياً لآل إسماعيل إلى الدين المسيحي. بل سمعنا من بعض الرهبان أنه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته. وأن محمداً ما حرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرى وهو سكران. وأسرفوا في هذا الإفتراء والبهتان. وكل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية أن النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام وهو ابن تسع سنين وقيل 12 سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظلله من الشمس وذكر لعمه أنه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود - وفي المسألة روايات أخرى بمعناها ضعيفة الأسانيد، إلا رواية للترمذي ليس فيها إسم بحيرى، وفيها غلط في المتن وليس في شيء من تلك الروايات أنه ﷺ سمع من بحيرى شيئاً من عقيدته أو دينه.

المقدمة الثانية

دعوى الأخذ عن ورقة بن توفل

قالوا: إن ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة -يوهمون القاريء أنه ﷺ أخذ شيئاً من علم أهل الكتاب- والذي صح من خبر ورقة هذا: ما رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها بما رآه في حراء، إلى ورقة هذا وأخبرته خبره، وكان شيخاً قد عمي، ولم يلبث بعد ذلك أن توفي، ولم ينقل أن النبي ﷺ رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا المبحث) وقد استقصى المحدثون المؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند كدأبهم في كل ما له علاقة بالنبي ﷺ والإسلام فلم يذكر أحد منهم أنه عرف عنه دعوة إلى النصرانية أو كتابة

فيها، وإنما ورد في بعضها أنه قال حين علم من خديجة خبر محمد: إنه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم، وفي بعضها أنه عاش حتى رأى بلالاً يعذبه المشركون ليرجع عن الإسلام، ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح: أنه كان عند بدء الوحي أعمى ولم ينشب -أي لم يلبث- أن مات، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها، وكان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين - وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها، وعدم اطلاعه على ما دُون في كتب الحديث منها، وإنما كان هم المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا أكان صحابياً أم لا؟ فإن الصحابي هو من لقي النبي ﷺ بعد البعثة مؤمناً به، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الإنجيل غير ما ذكروه لنقلوه.

المقدمة الثالثة
دعوى انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب

ذكروا ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الإسلام ومن تنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم، كقس بن ساعدة الإيادي، وأمية بن أبي الصلت، وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء. وقد نشرنا بعض بشاراتهم من التوراة والأناجيل وكتب النبوات بنصوصها المعتمدة عندهم في تفسير ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ** ﴾ [157] من سورة الأعراف، ولكن لم يثبت أنه ﷺ سمع منها شيئاً.

فأما قس فقد مات قبل البعثة، وروي أن النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جمل له أحمر، وقيل أورق، بكلام له مونق، قال فيه: إن لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد أظلكم زمانه، وأدرككم أوانه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه. والروايات في هذا ضعيفة (بل

بعضها موضوع وبعضها منقطع) وتعددها قد يدل على أن لها أصلاً، ولو حُفظ من كلامه شيء بسند صحيح لبينوه قطعاً.

وأما أمية بن أبي الصلت الثقفي فهو شاعر مشهور، قال أبو عبيدة: اتفقت العرب على أن أمية أشعر ثقيف، وقال الزبير بن بكار: حدثني عمي قال: كان أمية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً، وكان يذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وتجنب الأوثان وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبياً يُبعث بالحجاز، فرجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يُسلم، وهو الذي رثى قتلى بدر المشركين بالقصيدة التي أولها:

مـــــاذا ببـــــدر والعقـــــن قـــل مـــن مزاربـــة جحـــاجح؟

وفي المرآة عن ابن هشام أنه كان آمن بالنبي ﷺ فقدِم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر، فعلم بغزوة بدر وقتلى صناديد قريش فيها، فجدع أنف ناقته وشق ثوبه، وبكى لأن فيهم ابني خاله، وعاد إلى الطائف ومات فيها. وصح أن النبي ﷺ إستنشد الشريد بن عمرو من شعره، فأنشده، فقال «كاد أن يسلم» والمعروف أنه كان حنيفياً على ملة إبراهيم ولم يتنصر، ولم يلق النبي ﷺ قبل النبوة ولا بعدها. ومن شعره:

كـل ديـن يـوم القيامـة عنـد اللـــ ـــــه إلا ديـــــن الحنيفيـــــة زور

المقدمة الرابعة
حديث إسلام سلمان الفارسي

كان سلمان الفارسي رضي الله عنه فارسياً مجوسياً فتنصر على يد بعض الرهبان وصحب غير واحد من عُبَّادهم، وسمع منهم، أو من آخرهم بقرب ظهور النبي الذي بشر به عيسى والأنبياء من العرب، فقصد بلاد العرب، وبيع لبعض يهود يثرب ظلماً وعدواناً، ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده (أي إشترى نفسه منه) وفي قصته روايات متعارضة، وهذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره.

المقدمة الخامسة
رحلة الشتاء والصيف لتجار قريش

ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منها كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب.

المقدمة السادسة
ما قيل من وجود يهود ونصارى بمكة

زعم درمنغام أنه كان بمكة نفسها أناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخدماً، وكان رؤساء قريش لا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم، بل كان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء» وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لا تصل إلى مسامع رؤساء قريش وعظمائهم، أو ما كانوا يحفَلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة، ولكنه ذكر أن أبا سفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر.

فهذه مقدمات يذكرها كُتَّاب الإفرنج لتعليل ما ظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة، يعنون أنه سمع من أخبارها فتعلقت نفسه به، على طريقتهم في الاستنباط، وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاده منها من تأثير وعبرة، فنلخصها مضمومة إلى ما قبلها، مع الإلمام بنقدها.

المقدمة السابعة
ما زعمه من سبب نشوء محمد ﷺ أمياً
وما استفاد من رحلاته التجارية

قال درمنغام في كفالة أبي طالب لمحمد بعد وفاة جده: إنه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوهم القارىء أن أولاد الموسرين بمكة

كانوا يتعلمون، كأن هناك مدارس يعلم فيها النشء بالأجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له)، ثم قال: ولكنه كان يستصحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الأبعاد المتنائية، وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبيئها، ويقال: إنه في إحدى هذه الرحلات إلى الشام التقى بالراهب بَحيرى في جوار مدينة بُصرى، وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه. وفي الشام عرف محمد أخبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عُبَّاد النار لهم وانتظار الوقيعة بهم».

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله، ومبتدعات رأيه، ألبسه حلة من طراز البيان الإفرنسي، إلا مسألة بحيرى الراهب فأصلها ما ذكرنا، وكأنه لم يحفَل بإثباتها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها.

فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه إلى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم، وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته. ثم سافر إليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة، ولم يتجاوز سوق مدينة بُصرى في المرتين، والقوافل التي تذهب إلى الشام لم تكن تمر بمدين وهي أرض سيناء، ولم تكن هذه القوافل تضيع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب أو الأعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها، ولم يعرف عن تجارها أنهم كانوا يعنون بلقاء أحبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم، فمن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الأمم والتواريخ والكتب والأديان، ويعنى بلقاء رؤسائها والبحث معهم كما يفعل رواد العلم والتاريخ وجواسيس السياسة من الإفرنج في هذا العصر. إنما اخترع هذا لأنه لا يستطيع تعليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الإنباء بغلب الروم للفرس كما سيأتي. وسترى ما نفند به تعليله وتحليله وتركيبه، على تقدير صحة ما زعمه كله.

المقدمة الثامنة
تصوير مجامع قريش بمكة وشأن محمد فيها

ثم ذكر درمنغام أن العرب -ولا سيما أهل مكة- كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد ما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري وغير ذلك، وأن التاريخ يشهد بأن محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك، لا لفقره وضيق ذات يده بل لما صوره بقوله «لكن نفس محمد كانت شغوفاً بأن ترى وأن تسمع وأن تعرف، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقاً بها وتعلقاً، كما أن النفس العظيمة التي تجلت فيه من بعد ذلك آثارها، وما زال يغمر العالم سلطانها، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح إليه أهل مكة إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق إليها لاستكناه ما تدل هذه المظاهر عليه وما تحدث الموهوبين به» لعله يريد الملهمين.

هذا الخبر من مخترعات خيال درمنغام، فمحمد لم يكن شغوفاً بأن يرى ما يفعله فساق قومه من فسق وفجور، ولا أن يسمع ذلك، ولا كان يتحرى أن يعرفه، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت الشمس، فلم ير ولم يسمع شيئاً، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر، على ما فيه من المدح المتضمن لدسيستين: (إحداهما) أن أنداده من قريش كانوا متعلمين وكان هو محروماً مما لقنهم آباؤهم من العلم، وكان حرمانه هذا يزيده شغفاً بالبحث والاستطلاع. (والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحاً إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ما تدل عليه هذه المظاهر، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ما انبثق في نفسه ﷺ بعد ذلك من الوحي، وسترى بطلان تعليله.

المقدمة التاسعة
موت أبناء محمد وما أثاره في نفسه

ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب الطاهر، وهو يشك في وجودهم، ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لا تدل على وجود ولد له بهذا الاسم، وإنه إن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد. هذا زعم ووهم، والحق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكُني به، وأنه مات طفلاً، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة، فهذا متواتر. ثم ولد له آخر سماه عبد الله، والصحيح أن الطيب والطاهر لقبان له لا إسمين لغلامين آخرين كما قيل[1]. ولكن درمنغام قد كبَّر مسألة موت هؤلاء الأولاد الذين يشك في وجودهم تكبيراً وبنى عليها حكماً، وأثارهما. قال بعد أن زعم ان محمداً تبني زيد بن حارثة لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً.

«فمن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ما هي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر. والأمر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثر بعبر الحوادث ودروسها، وحوادث أليمة -كوفاة أبنائه- جديرة بأن تستوقف تفكيره، وأن تصرفه كل واحدة منها إلى ما كانت خديجة تتقرب به إلى أصنام الكعبة وتنحر لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، تريد أن تفتدي نفسها من ألم الثكل، فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور».

قال «والأمر كان كذلك، لا ريب أن كانت عبادة الأصنام قد بدأت تتزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة إليها من الروم، ومن اليمن، متخطية إليها من خليج العرب (البحر الأحمر) من بلاد الحبشة».

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الأبناء المشكوك في ولادتهم عنده هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة إلى الأصنام بالقرابين لينقذوها من

(1) وقع في الطبعتين السابقتين أنهما كانا لقبين للقاسم وهو سهو. وحكمة موتهما ثم موت ولده إبراهيم الذي ولدته له مارية القبطية أنه لو ترك ولداً ذكراً لفتن بعض الناس بعبادته وعبادة ذريته بأشد مما فتنوا ببعض ذرية بنته فاطمة عليها السلام.

مصيبة الثكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة إيمانها وإيمان بعلها بعبادتها التي كان سببها تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الأسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ.

والحق أنه ما تبني زيداً إلا لأنه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حراً مع والده وعمه عندما جاءا مكة لافتدائه بالمال. فقال لهما «ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء» ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرفهما، فقال له «فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما» فقال زيد: ما أنا بالذي اختار عليك أحداً، أنت مني بمكان الأب والعم. فقالا: ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر فقال «اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما. فدُعي زيداً بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام. رواه ابن سعد، ونحوه في سيرة ابن اسحق.

هذا وإن محمداً لم يكن جزوعاً عند موت ولده ولا غيره، بل كان أصبر الصابرين، وأن خديجة لم تيأس بموت القاسم من الله أن يمن عليها بولد آخر، ولم تنحر للأصنام شيئاً – وأن اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف، ولم تكن من أصنام قريش، والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان، ومناة كانت صنماً في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة، وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد –وزعم أن سببه إنتشار النصرانية– جديراً بأن يمنع خديجة – وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم إلى الحنيفية ملة إبراهيم– أن تهاجر إلى هذه الأصنام لتنحر لها وتتقرب اليها لترزقها غلاماً[1]، فإن لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر ببعلها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والأصنام من طفولته، كما يعترف درمنغام – ولكن اتباع الهوى يُنسي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه.

(1) إن قريشاً لم تكن تعتقد أن الأصنام تخلق ولا ترزق، ولا تضر ولا تنفع وإنما كانوا يقولون: إنها تشفع لهم عند الله.

المقدمة العاشرة

ضعف الوثنية في العرب وتعبد محمد في الغار وسببها بزعم درمنغام

زعم درمنغام أن ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت إلى زيادة إمعانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث أو التحنف، وزعمه هذا له أصل، ولكنه زاد فيه وكبره وفرع عليه قوله:

«وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف، وأن كان يجد فيها الوسيلة إلى ما برح شوقه يشتد إليه من نشدان المعرفة واستلهام ما في الكون من أسبابها، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس، مكتفياً بالقليل من الزاد يُحمل إليه ليُمضي أياماً طويلة بالغار في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة».

وأقول: إن روايات المحدثين تفيد أنه حبب إليه الخلاء والوحدة والتحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي، وكان هو يحمل الزاد وما كان أحد يحمله إليه، وما ذكره ابن إسحاق من تعبده فيه في شهر رمضان كل سنة إنما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي. ولم يكن في أعوام ولا شهور قبله، وأما قوله: إنه كان يتوسل بذلك إلى ما اشتد شوقه إليه من المعرفة وابتغاء الإلهام مما في الكون من أسبابها، فهو مما يخطر في بال الباحث في حياة رجل صدر عنه عقب هذه الخلوة ما صدر من علم ومعرفة وإصلاح، وإرشاد إلى النظر والتفكر في آيات السموات والأرض، ولكن لم يرو عنه ﷺ أنه كان يقصد ذلك ويبتغيه، ولا روي عن أصحابه وأترابه الذين كانوا يعرفون سيرته الطاهرة، وآمنوا به كأبي بكر وعثمان وعميه حمزة والعباس، ولا عن ربيبه وصفيه وابن عمه علي ولا حِبه ومولاه زيد ابن حارثة رضي الله عنهم والتحقيق في ذلك كله ما تراه في المباحث الآتية:

نتيجة

تلك المقدمات العشر

ههنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له، فأرخى لخياله العنان، ونزع من جواده اللجام، ونخسه بالمهماز، فعدا به سبحاً، وجمح به جمحاً، وأورت حوافره له قدحاً، فأثارت له نقعاً، وأذن لشاعريته الفرنسية في بريق لمعها، وظلمة نقعها، أن تصف محمداً عند ذلك الغار، بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل، وما تسفعه به شمس النهار، وما تخيل إليه أنه كان يراه في قنة الجبل من صحارى وقفار، وخيام وآبار، وما ثم خيام ولا آبار، ومن رعاة تهش على غنمها حيث لا أشجار، حتى ذكر البحار على بعد البحار، وسيذكر موج البحر أيضاً، ونسي أن يصف الفلك المواخر فيه، وما يعرض لها في حالة الرهو والريح الطيبة، وحالة العواصف والأمواج المصطخبة، فكل منها ذكر في القرآن، ولم يكن رآه محمد من جبل حراء. وقد أتقن هذا الفرنسي التخيل الشعري، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضعي.

ثم قال مصوراً لما يبتغيه محمد ﷺ من مشاهداته المزعومة:

«وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الإنسان أن يسمع بصيص ضوئها، وكأنه نغم نار موقدة.

«حقا! إن في السماء لشارات للمدركين، وفي العالم غيب بل العالم غيب كله لكن! ألا يكفي أن يفتح الإنسان عينيه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع؟ ليرى حقاً؟ وليسمع الكلم الخالد؟ لكن للناس عيوناً لا ترى وآذاناً لا تسمع. أما هو فيحسب (!!) أنه يسمع ويرى. وهل تحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلا إلى قلب خالص ونفس مخلصة، وفؤاد مليء إيماناً؟

«ومحمد في ريب من حكمة الناس، فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص، الذي لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق، والحق ليس فيما يرى حوله، فحياة القرشيين ليست حقاً، وربا المرابين ونهب البدو

ولهو الخلعاء وكل ما إلى ذلك لا شيء من الحق فيه، والأصنام المحيطة بالكعبة ليست حقاً، وهبل الإله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس إلهاً حقاً.

«إذن فأين الحق وما هو؟

«وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متوالية، وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه، وينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة، لأن هذا الذي يرى في الحياة ليس حقاً. وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ما وعى (!) فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازوراراً، وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الأحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها، وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء وساعات صفوها البديع، إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه (!) وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود – في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها، كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب إلى مكنون سره.

(قال درمنغام): فلما كانت سنة 610 أو نحوها كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها، فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه، وأن الناس نسوا هذا الأمر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته، وخشي الناس الجن والأشباح والبوارح، وأهملوا الحقيقة العليا، ولعلهم لم ينكروها، ولكنهم نسوها نسياناً هو موت الروح. وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها، ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد.

«ولقد عَرف أن المسيحيين في الشام ومكة لهم دين أُوحي به (!) وأن أقواماً غيرهم نزلت عليهم كلمة الله، وأنهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من أنبياء أوحي إليهم به، وكلما ضل الناس بعثت السماء إليهم نبياً يهديهم إلى الصراط

المستقيم ويذكرهم بالحقيقة الخالدة. وهذا الدين الذي جاء به الأنبياء في كل الأزمان دين واحد، وكلما أفسده الناس جاءهم رسول من السماء يُقَوِّم عِوَجهم. وقد كان الشعب العربي يومئذ في أشد تيهاء الضلال. أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم إلى الحق؟

«وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقاً، وجعل يقضي الأسابيع ومعه قليل من الزاد، وروحه تزداد بالصوم والسهر والإدمان على تقليب فكرته صِقالاً وحدَّة، ونسي النهار والليل، والحلم واليقظة، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار، أو مستلقياً في الشمس، أو سائراً بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجرية، وكأنه يسمع الأصوات التي تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته (!).

«وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره، فأسرَّ بمخاوفه إلى خديجة فطمأنته، وجعلت تحدثه بأنه الأمين، وأن الجن لا يمكن أن تقترب منه، وفيما هو يوماً نائم بالغار جاءه ملك فقال له: إقرأ، قال «ما أنا بقاريء» وكان هذا الوحي وأول النبوة.

«وهنا تبدأ حياة حدة روحية قوية غاية القوة، حياة تأخذ بالأبصار والألباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والإنسانية» اهـ.

أقول: إن كل ما هنا من خبر أو جله غير صحيح، ولو صحت لكان ما استنبطه منها مما يخطر بالبال، ولكن الوحي المحمدي فوق كل استنباط وكل احتمال، فمن أين علم هذا الإفرنسي أن محمداً نسى الليل والنهار، والحلم واليقظة، وأنه كان يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار أو مستلقياً في الشمس الخ، وأنه قضى ستة أشهر في هذا الحال؟ قد افترى في الأخبار[1] ليستنبط منها أنه صار صلوات الله عليه

(1) أي افترى في أثنائها ما ليس له أصل من روايات السيرة، ولم يفترها كلها، كما أنه لم يعرف الصحيح من الضعيف فيها، وفسرها بما وافق رأيه في سبب ذلك الوحي العظيم الذي يعترف هو بعظمته وحكمته.

مغلوباً على عقله، غائباً عن حسه، غارقاً في بحر لُجِّي من خياله أثمر له انبثاق ذلك الوحي العالي من نفسه، وتجليه لبصره وسمعه.

وإنني أبدأ الرد عليه وعلى أمثاله بنقل أصح الروايات في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد -من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها- لتفنيد أخيلته وشعرياته، وإبطال نتيجة مقدماته، والإستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي من الفصل الذي بعد هذا من كتابه. ذلك ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما. وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه في كتابه الجامع الصحيح:

باب

كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

افتتح الحافظ البخاري هذا الباب -بل الكتاب كله- بروايته لحديث «إنما الأعمال بالنيات» ثم قال:

«حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي[1]؟ قال رسول الله ﷺ: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس[2] وهو أشده عليَّ، فيفصم[3] عني وقد وعيت عنه ما قال،

---

(1) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الإعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة، منها: الرؤيا الصادقة والنفث في الروع والإلهام وإلقاء المَلَك وله معنى خاص، هو أحد الأقسام الثلاثة للتكليم الإلهي الوارد في قوله تعالى ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى]. وهذا الحديث فيه وصف القسم الأول وذِكر الثالث، وأما الثاني وهو الكلام الإلهي من وراء حجاب بدون وساطة فقد ثبت للنبي ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، ولموسى عليه الصلاة والسلام. وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي، والرؤيا الصادقة والإلهام مما وقع ويقع لغير الأنبياء.

(2) المراد من التشبيه: أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف. والأقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحداً منهم في حال سماعه. وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لأنها كما قال الحكيم ابن خلدون: انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالمَلَكية الروحانية والحالة الأخرى عكسها، لأنها انتقال المَلَك من الروحانية المحضة إلى البشرية الجسمانية.

(3) يفصم - على وزن يضرب: ينفك وينجلي.

وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً[1]، فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[2]».

«حدثنا يحي بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت «أول ما بُديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم[3]، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه[4] -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق[5]، وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك، فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقاريء[6]، قال:

---

(1) أي يظهر بصفة رجل ومثاله، وذلك أن المَلَك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة، فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريدها. وان علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصور بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينهما بقوة الحرارة، وأقواها حرارة الكهربائية، والمَلَك يتصرف في الكهربائية كما يشاء، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:143] - راجع ص 162 - 167 ج 9 تفسير.

(2) كان من هذه الشدة عليه ما قاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد: حتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها. اهـ.

(3) أكثر الرؤى أضغاث أحلام، لها أسباب تثيرها في خيال النائم، والرؤيا الصالحة نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لإدراكها بما يكون وقت النوم من صفائها بعد اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والأفكار، ورؤيا الأنبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأنيس للنفس تقوي استعدادها لتلقي الكلام الإلهي.

(4) أصل التحنث: اتقاء الحنث أي الذنب، أو مقلوب التحنف، وهو اتباع الحنيفية ملة إبراهيم. وهو رواية ابن هشام. وقوله: وهو التعبد، جملة تفسيرية لراوي الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث، والليالي ظرف متعلق بيتحنث.

(5) وفي رواية «فجئه الحق» أي بغته ولم يكن ينتظره والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام الله تعالى، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة، وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق «أن جبريل جاءه في المنام» وهي من مراسيل عبيد بن عمير وهو ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة المرفوعة هي المعتمدة، وجمع بعضهم بين الروايتين بأنه رآه أولاً في المنام فاستقرأه، ثم رآه في اليقظة، ولو وقع هذا في المنام لزال خوفه ورعبه ﷺ بعد اليقظة، ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده.

(6) الظاهر: أن الأمر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف - أي كن قارئاً، ولذلك قال له في الثالثة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي كن قارئاً بإسمه ومن قبله وباقداره إياك على القراءة، لا بحولك وقوتك فهو يعلم أنك

فأخذني فغطني[1] حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقاريء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق][2]، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي»[3] فقالت خديجة، كلا، والله ما يخزيك الله أبداً[4]، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة، أما وقد شاء ربك - ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وهو الحيوان المنوي أو أول ما تتحول إليه نطفة الزوجين بعد العلوق، فجعله بشراً سوياً يسمع ويبصر ويعقل - شاء أن يجعلك قارئاً لما يوحيه إليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئاً.

(1) فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط، فقالوا: أي ضمني وعصرني، وفي رواية الطبري للحديث «فغتني» بالمثناة الفوقية وعليها ابن هشام تبعاً لإبن إسحاق، والغط: هو الغت مخرجهما واحد. وأصل معناهما: الغمس في الماء وضيق النفس وفسره بعضهم بالخنق وهو مبالغة لا تليق هنا. وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي ﷺ حتى يقوى على الاتصال بالمَلَك والفهم منه.

(2) اختصره هنا وزاد في التفسير ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[العلق].

(3) اختلف العلماء في خوفه ﷺ على نفسه، فقيل خشي الجنون وأن يكون ما رآه من الجن، وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافقه الحافظ ابن حجر، ولكن الحافظ قال: إنه روي من عدة طرق. (أقول) وهو الظاهر مما أجابته به خديجة. واستشكل بأن الوحي يكون مقترناً بعلم قطعي بأنه من الله وأن الملقن له من الملائكة، وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف المَلَك له وإعلامه إياه بذلك، عند تلقينه الأمر بالتبليغ، وإنما كان ظهور المَلَك له هذه المرة لأجل الإيناس والإعداد لتلقي وحي الأحكام، والأمر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، وإلا كان من تكليف ما لا يطاق. وقيل: إنه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب، وثم أقوال أخرى متكلفة. وهو على كل حال يدل على أنه ﷺ لم يفهم من هذه الرؤية أنه صار نبياً، ولا أن الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام، ويؤيد ذلك مسألة ورقة.

(4) الخزي اسم، معناه الذل والهوان. أخزاه أذله وأهانه. والكل- بفتح الكاف- المتعب، ومن هو عالة على غيره، وحمله إعطاؤه راحلة يركبها أو حمل أثقاله وتكسب - بفتح التاء، وضمها لغة ورواية، والمعدوم المفقود قيل: ولا يظهر معناه إلا بتكلف. وقال الخطابي: الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه. اهـ. ولكن الرواية «المعدوم» وهو وصف لمحذوف، وتكسب الثلاثي من الكسب يتعدى بنفسه إلى مفعولين حذف أولهما، والمعنى وتجعل المحتاج العاجز عن الكسب كاسباً للشيء المعدوم الذي يفقده ببذله له، أو بمساعدته على كسبه، والإعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل أعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل. وما رغب خديجة في التزوج به ﷺ إلا هذه الفضائل التي أحاطت بها خبراً بمعاشرته الزوجية، ولذلك عد بعض علماء الإفرنج إيمانها به أصح شهادة له.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب[1]، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس[2] الذي نزل الله على موسى: ليتني فيها جذعاً[3]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب[4] ورقة أن توفي وفتر الوحي[5].

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بينا أنا ماش إذ سمعت

---

(1) وفي رواية البخاري في كتاب التفسير من صحيحه «يكتب من الإنجيل بالعربية» وفي معناها رواية مسلم «فكان يكتب الكتاب العربي» ولا تنافي بين الروايات، إذ كان يعرف اللغتين. وورقة ابن عم خديجة، وأما قولها له «اسمع من ابن أخيك» فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم، وكذا قوله للنبي ﷺ «يا ابن أخي» وما زال يستعمل في خطاب أولاد الأقرباء، والأصدقاء.

(2) الناموس: في اللغة صاحب السر، والمراد به أمين الوحي جبريل وقوله «نزل الله على موسى» ولم يقل وعيسى لأن الشبه بين الوحي إلى موسى ومحمد عليهما السلام أتم، لأن كلا منهما أوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية، وعيسى عليه السلام كان تابعاً لشريعة التوراة وناسخاً لبعض الأحكام التي يقتضيها الإصلاح، ومبشراً بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم، وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين، وفي بعض الروايات الضعيفة: أن ورقة قال «ناموس عيسى»، وفي رواية أخرى حسنة الإسناد في دلائل النبوة لأبي نعيم «أن خديجة جاءت ورقة وحدها أولاً فذكرت له الخبر فقال لها: إن كنت صدقتني إنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم» اهـ. والناموس واحد على كل حال، ولكن رواية الصحيحين «فانطلقت به» تدل على التعقيب أي أنها ذهبت به عقب تحديثها بما رأى وعليها المعول، وما خالفها مرسل مروى بالمعنى الذي فهمه عبيد بن عمير ومن دونه.

(3) قوله: ليتني فيها جذعاً: الجذع بفتحتين خلاف المسن من البهائم واشتهرت استعارته للشاب من الناس. والإخراج: النفي من الوطن.

(4) لم ينشب – بفتح الشين المعجمة – أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي ﷺ ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، ومقتضاه أنه أدرك زمن البعثة وإضطهاد المشركين للمؤمنين. والمعتمد ما في الصحيح من أنه توفى عقب هذا الحديث بقليل.

(5) فتر الوحي انقطع مؤقتاً ليعود –وكانت فترة الوحي ثلاث سنين– وهي ما بين بدئه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بإنذار الناس.

صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا المَلَك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت، فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدَّثر] إلى قوله ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدَّثر] فحمي الوحي وتتابع[1]» اهـ.

وأقول: أخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها: أن أولها هو أول ما أُنزل مطلقاً، وفي البعض الآخر: أنها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتي هنا، وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية المَلَك بقوله «فجُئِثت منه رعباً» وفي رواية أخرى «فجُئِثت منه حتى هويت إلى الأرض» أي فزعت وخفت، وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول.

هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن، والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة، وبعدها بقية سورة المدثر. وقال مجاهد: أول ما نزل سورة ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ وهو غلط، وروي عن علي رضي الله عنه أن أول ما نزل سورة الفاتحة، واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب، ويمكن أن يراد أنها أول

(1) أي إتصلت مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة، ولكنه كان نجوماً متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى. وقد اختلط الأمر في هذا على درمنغام فظن أنها هي التي نزلت بعد فترة الوحي، والمروي أنه نزل قبلها بضع سور. وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان «أن النبي ﷺ اشتكى (أي وجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا (أي إلى تهجده وتلاوته) فقالت امرأة: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عز وجل ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُّحى]. اهـ. تُقرأ «ودعك» بالتشديد والتخفيف ومعناهما واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر: البغض، أي ما تركك ربك وما أبغضك – وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبو لهب وبنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم، وكان هذا بعد نزول سورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾. وروى ابن جرير من طريقين مرسلين «أن جبريل أبطأ على النبي ﷺ فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك، فنزلت» ومعارضة رواية الصحيحين بهاته الرواية المرسلة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ ابن حجر بينهما بأن خديجة قالت ما قالت توجعاً، وحمالة الحطب قالته شماتة.

سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني، ثم بالأمر بالتبليغ الإجمالي، وتلاها فرض الصلاة ونزول سورة المزمل، أو نزلتا في وقت واحد.

وسيأتي كلام آخر في فترة الوحي وأول ما نزل بعده.

بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ

هاأنذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا أنه استفاده من أسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي، وكيف كان بدؤه وفترته، ثم كيف أمر نبيه ﷺ بتبليغه ودعوة الناس إلى الحق، وكيف حمي وتتابع؟

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه إلى العقل، ثم أقفي عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ، والصحيح من وصف حالته ﷺ، فأقول:

يقولون: (أولاً) إن عقل محمد الهيولاني -أو ما يسمونه في عصرنا بالعقل الباطن- قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الأقوام، ونقول: آمنا وصدقنا.

(ثانياً) إن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار، ونقول: آمنا وصدقنا.

(ثالثاً) إن فقره وفقر عمه (أبي طالب) الذي كفله صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات: من السكر والتسري وعزف القيان، ونقول: الصحيح: أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه.

(رابعاً) أنه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح، وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات، ونقول: لا مانع من ذلك.

(خامساً) أنه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور. ونقول: إن هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا.

(سادساً) أن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع. ونقول: هذا مبني على ما قبله، فهو معقول غير منقول.

(سابعاً) أنه كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل أولئك الأنبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء، وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه ونقول: إن هذا استنباط لهم مما قبله غير صحيح. وسيأتي ما فيه.

(ثامناً) وهو نتيجة ما تقدم: أنه توسل إلى ذلك بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه في خلوته بغار حراء فقوي هناك إيمانه، وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات في ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود، وسر النظام الساري في كل موجود، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور. وما زال يفكر ويتأمل، وينفعل ويتململ، ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشر، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له المَلَك ويلقنه الوحي في اليقظة.

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الأصل من تلك الينابيع التي ذكرناها، ومما هداه إليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء وأنها خطاب الخالق عز وجل

بواسطة الناموس الأكبر ملك الوحي جبريل روح القدس عليه السلام، الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى ابن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام.

وقال أحد ملاحدة المصريين: إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانوناً وشريعة لقومه، فليس بِدعاً في العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً. وسأبين فساد هذا الرأي أيضاً.

تفنيد تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه

(الوجه الأول) أن أكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة، أو دعاوى باطلة، لا قضايا تاريخية ثابتة، كما بيناه عند ذكرها، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها.

مثال ذلك: زعمهم أن محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم – ليوهموا الناس أن ما جاء في أول سورة الروم من الإنباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام. وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل: فأما التاريخ فإنه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة 610م وذلك بعد رحلة محمد الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة. ثم إن التاريخ أنبأنا أن دولة الروم كانت مختلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب على الفرس، حتى إن أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر، وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان[1].

(1) في القصة روايات من طرق فيها خلاف فيما قدروا فيه البِضْع وهو في الأصل من 3 – 9 فقيل خمس وقيل ست ولام النبي ﷺ أبا بكر على تحديده وقد أبهمه الله تعالى، وفي بعضها أنهم أخطئوا الأجل الأول فأمر النبي ﷺ بأن يبادوهم في الأجل ويزايدوهم في الرهن ففعلوا ورضي المشركون. وكان الذي تولى قمارهم أبي بن خلف فأظهر الله الروم على الفرس عند إنتهائه على رأس السبع من قمارهم الأول.

وأما العقل فإنه يحكم بأن مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين – لا من قِبَل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الأخبار غير الموثوق بها. وقد صح أن إنتصار الروم وقع سنة 622م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة 614 فإذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين وإن كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين، وهو المعتمد في التفسير، والبِضْع يطلق على ما بين الثلاث والتسع.

والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾[الروم]، ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً – هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة. وأنباء الوحي والعبر لا تكون باسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور، فهذه الآية فريدة في بابها.

ومثال آخر: ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها، الذي أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء في القرآن من أخبارها، والخبر باطل كما أشرنا إليه عند نقلنا إياه في المقدمات، ولو صح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد على ما سمعه في الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا يصدقهم فيجعله أصلاً للوحي الذي جاءه في قصة موسى وقصة شعيب عليهما السلام.

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى من علماء النصارى في الشام شيئاً أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه ووكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده وما عُلم من سيرة رواته.

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى، فإنهم كانوا

يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة، وهو أنه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته فاتهموه بأنه يتعلم منه، فرد الله عليهم بقوله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل].

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي، وهم متفقون معنا على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد، فضلاً عن الكذب على الله عز وجل كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل ويقينه بكل ما أوحاه إليه.

ومن الشواهد على ذلك: قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [القصص]، وقوله بعد قصة نوح من سورة هود ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود]، ونحوه في أواخر سورة يوسف بعد قصته ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف].

ومن الشواهد التي لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران].

الأقلام جمع قلم تطلق على الأزلام والأقداح التي كانوا يلقونها لضرب القرعة لإزالة الخلاف فيما يتنازعون فيه، وعلى أقلام الكتابة، وتكون القرعة بأوراق تخط

بها، كما هو المعهود في عصرنا، والمعنى أنهم اختصموا وتنازعوا في كفالة مريم وتربيتها عناية بأمرها فأصابت القرعة زكريا عليه السلام، كما قال تعالى في أول قصتها (3 : 37).

(الوجه الخامس) أنه لم يرد في الأخبار الصحيحة والمرفوعة[1] أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لأنهم ما تركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه، كما رووا مثله عن أمية بن أبي الصلت، بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يكن يرجو هذا ولا يؤمله قال تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[القصص:86]، أي لكن ألقي إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم، لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل، ولا رجاء ولا أمل. فهذا تأكيد وتكميل الشاهد الأول من الوجه الرابع.

(الوجه السادس) أن حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى المَلَك أول مرة. ولم تجد زوجته خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر، وقرأ كتب اليهود والنصارى.

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب، والوجدان الملتهب، والقلب المتقلب، حتى إذا كمل استعداده، تجلى له رجاؤه له واعتقاده، بما تم به مراده، لظهر عقب كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة، فكرته الوقادة، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن، في بيان أصول الإيمان، وتوحيد الديان، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة والأوثان، وتشريع الأحبار والرهبان واتخاذ الولد للرحمن، وإنذار رءوس الكفر والطغيان، ما سيلقون في الدنيا من الخزي

(1) الحديث المرفوع في اصطلاح المحدثين ما صرح الصحابي بأنه من قوم النبي ﷺ.

والنكال، وفي الآخرة من عذاب النار، كسور المفصل ولا سيما ﴿قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ والذاريات والطور والنجم والقمر، ثم الحاقة والنبأ – أو في سورة أو أكثر من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج، وتأخذهم بالعبر، وتضرب لهم المثل، بسنن الله في الرسل، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون.

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة، ولم يدعهم إلى شيء، ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الديني الذي توجهت إليه بزعمهم نفسه، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه، وناهيك بألصق الناس به: خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته، وأبي بكر الصديق الذي عاشره طول عمره – فهذا السكوت وحده في فترة الوحي برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه، واستعداده لعلومه من التلقي الذي اختلقوه، والاختبار الذي توهموه.

(الوجه الثامن) أن ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقاً لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة، دون ما زعموا من الأمور السابقة، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر رداً على قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن – فقد أراده أبو جهل أن يقول فيه قولاً يبلغ قومه أنه منكر له، وأنه كاره له، بعد أن علم أنه تحرى استماعه من محمد ﷺ وأعجب به. قال له الوليد: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر، لا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله[1]، وإنه ليعلوا وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. فقال: دعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر، يأثِره من غيره، فنزلت الآيات ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١﴾ [المدَّثر] إلى الآية 30. رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخاري.

(1) وفي رواية: وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق.

وقد نزلت سورة ﴿اقْرَأْ﴾، فسورة ﴿نٓ وَالْقَلَمِ﴾، فسورة المزمل، قبل سورة المدثر، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء مما زعموا أنه تلقاه أو شاهده في الأسفار، ولا مما وصفوا من أفكاره في الغار، فليراجع ترتيب نزول السور في كتاب الإتقان من شاء.

(الوجه التاسع) أن هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن.

وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بَحيرى ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام أو حضرهم.

وإن القرآن نزل مصدقاً لكُتب أهل الكتاب من حيث كونها في الأصل من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم - ونزل أيضاً مهيمناً عليها، أي رقيباً وحاكماً كما نصت عليه الآية (48) من سورة المائدة (الخامسة)، ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب (4 : 44 و 51)، أي لا كله، ونسوا حظا آخر منه (5 : 13 و 14)، وأنهم حرفوا كَلِمه عن مواضعه (2 : 75 و 4 : 46 و 5 : 13 و 41)، وبَيَّن كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والأحكام والأخبار.

ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية إلى الشام، سواء أكان عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والعيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الأناجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبو كريف) كإنجيل طفولة المسيح وإنجيل برنابا أم لا؟ فمحمد لم يعقد في الشام ولا مكة مجمعاً مسيحياً كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأناجيل والمذاهب المسيحية، ويحكم بصحة بعضها دون بعض.

إن وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال عادة، وعلى فرض وقوعه يقال: كيف يمكن أن يحكم بين تلك الأناجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حُكمه الخطأ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[1] يعني فيما سكت عنه القرآن، لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا، أو يكون ما صدقوهم به مما نسو حقيقته، أو حرفوا أو بدلوا.

(العاشر) أن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى، ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته – وفيما فيه من عزو صنع العجل الذي عبده بنو إسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامري وإثباته لإنكار هارون عليهم فيه، وغير ذلك.

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الإلهية: ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه.

رويدكم أيها المفتاتون[2] الذين يقولون ما لا يعلمون، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون، وأكبر مما تتصورون وتُصورون، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تَدَّعون، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون.

وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لأنه الخاتم لهم، المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوته، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه

---

(1) رواه البخاري بهذا اللفظ، وأحمد والبزار من حديث جابر بلفظ «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تكذبوا بحق أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي» وسببه أن عمر كتب شيئاً من التوراة عن اليهود فعلم بذلك النبي ﷺ فغضب وقاله.

(2) يقال: افتات فلان إذا سبق بفعل شيء وإستبد به ولم يؤامر فيه من هو أحق منه بالأمر فيه، لأنه أعلم به وأجدر بتحقيقه، ويقال: فلان لا يفتات عليه أي لا يتدخل أحد في أموره بدون أمره وإذنه، وأصله الهمز. فيقال: افتأت عليه أيضاً.

سولون الفيلسوف اليوناني الذي شَبَّه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا في مصرنا، مع بُعد الشبه بين أمي نشأ بين الأميين، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة، ودخل في كل أمور الأمة والدولة كسولون هذا[1].

القول الحق

في استعداد محمد ﷺ للنبوة والوحي

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته: هو أنه خلقه كامل الفطرة ليبعثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالي الهيولاني ليبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، وأنه بَغَّض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب إليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء والبغي على الناس، أو المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل – ليبعثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الأعلى لتنفيذ ما يوجه إليه من الشرع الأعلى.

فكان من عفته أن سلخ من سني شبابه وفراغه خمساً وعشرين سنة مع زوجته خديجة كانت في عشر منها كهلة نصفاً أم أولاد، وفي 15 منها عجوزاً يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس إليه، وظل يذكرها ويفضلها

---

(1) سولون: أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من أنسباء بستراتوس آخر ملوك أثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الأعمال الإدارية والعسكرية وقيادة الجيش. وقد انتُخب في سنة 594 ق.م (ارخونا) أي رئيساً على الأمة بإجماع أحزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه (زراكوت) من قبله. فوضع لهم نظاماً جديداً قررت الحكومة والأمة إتخاذه دستوراً متبعاً مدة عشر سنين. فسولون كان في قانونه مُنَقِّحاً ومجدداً لقانون أعظم أمة من أمم الحكمة والحضارة نشأ فيها، فكان متعلماً وفيلسوفاً وحاكماً وقائداً ورئيساً، أفيقاس عليه محمد ﷺ الأمي الذي لم يقرأ سطراً ولم ير كتاباً، ولا تولى عملاً إدارياً ولا سياسياً، ثم إن ما جاء به لم يكن قانوناً موضعياً مُنَقِّحاً لقوانين أخرى قبله، بل كان إصلاحاً لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم وأحكامهم وسياستهم وحروبهم الخ؟ أنظر أيها القارىء إلى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم الذي هو مناط شرفهم وفخرهم على الأمم!!

على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه، ومكانة والدها العليا في أصحابه. وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق، فكان على شجاعته الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم، لأجل صدهم عن دينه ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلاً واحداً منهم (هو أُبَيّ بن خلف) كان موطناً نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مِغْفَر ودرع، فلم يجد ﷺ بداً من قتله فطعنه في ترقوته من خَلَل الدرع والمغفر فقتله، وظل طول عمره ثابتاً على أخلاقه، من الزهد والجود والإيثار، فكان بعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يوثر التقشف وشظف العيش على نعمته، مع إباحة شرعه لأكل الطيبات، ونهيه عن تركها تديناً، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد، وكان يساعد أهل بيته على خدمة الدار.

أكمل الله استعداده الفطري الوهبي «لا الكسبي» للبعثة بإكمال دين النبيين والمرسلين، والتشريع الكافي الكامل لإصلاح جميع البشر إلى يوم الدين، وجعله حجة على جميع العالمين، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً، وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الأميين ومن أهل الكتاب، حتى إنه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان، وبلاغة البيان من شعر وخطابة، ومفاخرة ومنافرة[1]، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ[2] من جميع النواحي لإظهار بلاغتهم وبراعتهم، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء

(1) المنافرة: المحاكمة والمفاخرة في الأحساب والأنساب.

(2) كان للعرب في عهد الجاهلية أسواق ومجامع في الحجاز يقصدونها في موسم الحج للبيع والشراء ولإظهار مناقبهم ومجد آبائهم وقبائلهم، أولها عكاظ بالضم -بوزن غراب- وهي من عمل الطائف عن طريق اليمن. وقال أبو عبيد: هي صحراء مستوية لا عَلَم -بفتحتين- بها ولا جبل، وهي بين نجد والطائف وكان يقام فيها السوق نحواً من نصف شهر في ذي القعدة، ثم يأتون سوق ذي مِجَنَّة -بكسر الميم وتشديد النون- وهي دون عكاظ إلى مكة، فيقيمون فيها إلى آخر ذي القعدة، ثم يأتون سوق ذي المجاز، وهي أقرب إلى مكة، فيقيمون فيها إلى يوم التروية -وهو اليوم الذي قبل عرفة، الذي هو تاسع ذي الحجة- ومنها يصدرون إلى منى فعرفات.

لغتهم، وإتساع معارفهم، وكثرة الحكمة في شعرهم، فكان من الغريب أن يزهد محمد ﷺ في مشاركتهم فيه بنفسه، وفي روايته لما عساه يسمعه منه وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية بن الصلت فقال «إن كاد ليسلم» وقال «آمن شعره وكفر قلبه» وقال «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر حِكَماً» رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس، وأما قوله «إن من البيان لسحراً» فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر.

قلنا: إن الله تعالى جعل استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطرياً وإلهامياً لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي، وإنه لم يُرو عنه أنه كان يرجوها، كما رُوي عن أمية بن أبي الصلت، بل أخبر الله عنه أنه لم يكن يرجوها كما تقدم ولكن رُوي عن خديجة رضي الله عنها أنها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته، وما قاله بَحيرى الراهب فيه، تعلق أملها بأن يكون هو النبي الذي يتحدثون عنه، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها إلى درجة المسند الصحيح، كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفاً.

فإن قيل: إنه يقويها حلفها بالله أن الله تعالى لا يخزيه أبداً، قلنا: إنها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله. ورأت أنها في حاجة إلى استفتاء ابن عمها ورقة في شأنه.

وأما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في أنه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعدادا الوهبي، ولذلك الاستعداد السلبي، من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم، ولكنه لم يكن يقصد به الاستعداد للنبوة، لأنه لو كان لأجلها لاعتقد حين رأى المَلَك أو عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه، ولم يَخَف منه على نفسه، وإنما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، وما يفسره من قوله عز وجل في سورة الشورى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا

﴿ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾، وألم به في رسالة التوحيد إلماماً مختصراً مفيداً، فقال:

«من السنن المعروفة أن يتيماً فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه، لا سيما إن كان من ذوي قرابته، وأهل عصبته، ولا كتاب يرشده، ولا أستاذ ينبهه، ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الأمر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويكون للفكر والنظر مجال، فيرجع إلى مخالفتهم، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده[1].

«ولكن الأمر لم يجر على سنته، بل بُغِّضَت إليه الوثنية من مبدإ عمره، فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسن الخليقة، وما جاء في الكتاب من قوله ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضُّحى] لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم، حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين، وإنما هي الحيرة تُلم بقلوب أهل الإخلاص، فيما يرجون للناس من الخلاص، وطلب السبيل، إلى ما هُدوا إليه من إنقاذ الهالكين، وإرشاد الضالين، وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته» اهـ.

(أقول) وجملة القول أن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية، والأعمال الوراثية والعادات المنكرة، إلى أن تجلى فيها الوحي الإلهي بأكمل معانيه، وأبلغ مبانيه، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله إلى أقوامهم خاصة، بما يناسب حالهم واستعدادهم، وأراد إكمال الدين به فجعله خاتم النبيين، وجعل رسالته عامة دائمة، لا يحتاجون بعدها إلى وحي آخر.

(1) كأمية بن أبي الصلت وزيد بن عمرو بن نفيل.

الأمثال النورانية

لفطرة محمد ﷺ وروحه ووحيه، وكتاب الله تعالى ودينه

لقد كان محمد ﷺ في فطرته السليمة، وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل، الذي تلوته عليك آنفاً من آخر سورة الشورى، هو مضرب المثل في قوله تعالى من سورة النور ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾[النور].

فمصباح الروح المحمدية، في زجاجة فطرته الزكية، المتلألئة كالكواكب الدرية، يوقد من شجرة مباركة قدوسية، زيتونة لا شرقية ولا غربية، لا يهودية ولا نصرانية، بل هي إلهية علوية، أشبه بما عرف الناس في عصرنا بالكهربائية، يكاد زيت كمالها الفطري يضيء بذاته ولو لم تمسسه نار، فمسه نور الله بما أوحاه إليه، فاشتعل بما عم العالم من الأنوار، ولا غرو فقد جعل الله محمداً نوراً، وجعل كتابه الذي أنزل إليه نوراً، وجعل دينه نوراً.

قال تعالى ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ [1] وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة]، وقال ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]، وقال ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر:22]، وقال ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:8]، وقال في خطاب المؤمنين بالله ورسله السابقين لمحمد ﷺ من الكتاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد]، وقال فيمن

(1) النور هنا هو محمد رسول الله ﷺ بدليل عطف الكتاب عليه.

استجاب لهذه الدعوة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[الأعراف:157].

ومما كان يدعو به ﷺ بعد نبوته استمداداً للنور من ربه «اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن خلفي نوراً، واجعل لي في نفسي نوراً، وأعظم لي نوراً» رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس.

فيا مسيو درمنغام! إنك قد أبصرت قبساً من هذا النور الوهاج، فلا تحسبن أن محمداً اقتبسه من أعراب مدين ويهود يثرب ونصارى الشام، أو استوراه من تفكره في أمور الكون والناس، فالأمر أعظم من ذلك، فنور الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية العربية، وقناديل الكنائس اليهودية والنصرانية، أو من نور ما بقي عندهم من كتب أنبيائه الأصلية، إنما هو فائض من نور الله الأعظم، على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ، هو كما قال البوصيري:

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفيء القنديلا

وكما قال في أول همزيته:

كيف ترقى رقيك الأنبياء؟ ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حا ... ل سنى منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تص ... در إلا عن ضوئك الأضواء

أفرأيت من أنزل الله عليه تلك الآيات، التي أشرقت بنورها الأرض والسموات، وألهمه هذا الدعاء الفياض بنور الله، أيعقل أن يستمد النور ممن كانوا يعيشون في ظلمة الوثنية الهالكة، ظلمات التقاليد الكهنوتية الحالكة، الذين ضرب

لهم الله المثل بعد مثل النور الذي اقتبسناه من سورة النور بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠ ﴾[النور].

فارجع أيها الناظر المنصف إلى وجدانك، وتأمل هذه الأمثال الإلهية، وما تراه في سائر هذا الكتاب، لعل الله يتم نور إنصافك، فتكتب كتاباً آخر تثبت به الوحي الإلهي المعصوم لمحمد خاتم النبيين، ببلاغتك الفرنسية، وتدعو قومك إلى الاهتداء بكتابه القويم، ومعالجة مفاسد إلحادهم وخياناتهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم باتباع صراطه المستقيم.

***

هذا ما نراه كافياً لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده.

ويتلوه ما هو أقوى دليلاً، وأقوم قيلاً، وهو موضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة، وحجته الناهضة، ومصدر جميع تلك الأنوار الفائضة، وهو:

آية الله الكبرى

القرآن العظيم

القرآن الكريم، القرآن الحكيم، القرآن المجيد، الكتاب العزيز

الذي

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ ﴾

هو كتاب لا كالكتب، هو آية لا كالآيات هو معجزة لا كالمعجزات، هو نور لا كالأنوار، هو سر لا كالأسرار، هو كلام لا كالكلام، هو كلام الله الحي القيوم، الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من

سماء الأفق الأعلى إلى هذه الأرض، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس بلفظه الذي تلقاه عن الروح الأمين، ثم بيانه لهم بالقول والعمل ليهتدوا به. فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وهدايته وتأثيره وعلومه، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ولا مواهبه، من علومه ومعارفه، وفصاحته وبلاغته، وهو ﷺ لم يكن عالماً ولا بليغاً ممتازاً إلا به، بل فيه آيات صريحة ناطقة بأنه لم يكن يعلم شيئاً من علومه – تقدم بعضها، وبأنه كان يعجز كغيره عن الإتيان بمثله، وهو ما أمره تعالى أن يقوله للناس في تحديه إياهم واستدلاله به على نبوته، وهو قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾؟ [يونس]، أي لو شاء الله ألا أتلوه عليكم ما تلوته، ولما أعلمكم هو به، فإني إنما تلوته عليكم بمشيئته وأمره، فقد أقمت فيكم عمراً طويلاً لم أتل عليكم شيئاً، أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة لم يصدر عنه علم ولا عرفان، ولا بلاغة لسان، لا يمكن أن يصدر عنه بعد الاكتهال، ما لم يكن له أدنى نصيب منه في سن الشباب[1]؟

وقد بينت في الكلام على آية التحدي بالقرآن من تفسير سورة البقرة (2 : 23) أهم وجوه الإعجاز اللفظي والمعنوي بالإجمال والإيجاز، وهي بضعة أنواع[2].

---

(1) راجع تفسير الآية في ص 320 من جزء التفسير الحادي عشر تر ما يؤيد هذا الدليل العقلي من العلم العصري.

(2) هي: (1) أسلوبه ونظمه. (2) بلاغته. (3) ما فيه من علم الغيب الماضي والحاضر والآتي. (4) سلامته من الاختلاف بأنواعه. (5) ما فيه من العلوم الدينية والتشريع. (6) عجز الزمان عن نقض شيء منه بما تجدد فيه من العلوم. (7) اشتماله على مسائل كثيرة لم تكن معروفة في عصر نزوله للبشر. ويتلو هذه الأنواع وجوه دلالتها على نبوة محمد ﷺ وتفسير الآية في الجزء الأول من تفسير المنار (ص 191 – 228).

ثم تكلمت عن التحدي ببلاغته ونظمه في آيتي يونس (10 : 37 و 38)، ومنه دلالتهما على عجز النبي ﷺ عن الإتيان بسورة من مثله كغيره ومنه وجه التحدي بعشر سور مثله مفتريات، ووجه الإعجاز في السور القصيرة وسأعود إلى هذا في آخر الكتاب.

وأوجه الكلام هنا إلى هداية القرآن بإسلوبه وتأثيره وعلومه المصلحة للبشر، بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل، وهو القدر الذي يُعلم منه أن هذه العلوم أهدى من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الأنبياء والحكماء، وواضعي الشرائع والقوانين، وساسة الشعوب والأمم، وأن إعجازه من هذه الناحية أقوى البراهين على كونه وحياً من الله تعالى تقوم به الحجة على جميع البشر.

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عليماً حكيماً رحيماً مريداً فاعلاً مختاراً، فلا مندوحة له ولا مناص من الإيمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم أنبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم، وتزكية أنفسهم وإصلاح مجتمعهم من المفاسد التي كانت عامة لجميع أممهم، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً لازباً عاماً كما قال تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:158].

ومَن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العليم الحكيم، فهذا القرآن حجة ناهضة على وجوده الحق، بكونه ليس من المعهود في الخلق، وبما اشتمل عليه من الآيات البينات في الأنفس والآفاق، فمن لم يهتد إلى فهمها، فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمداً أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين. ويكون الواجب بمقتضى العقل أن يعترف له هؤلاء بأنه أفضل البشر على الإطلاق، وأولاهم بالاتباع، ولا غرو فقد اعترف له بهذا كثير من علماء الشرق والغرب، سنورد بعض شهاداتهم بعد.

بل رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون القرآن في الجملة يعتقدون أنه ما وجد ولن يوجد مثله في المستقبل: منهم الأستاذ وليام موير الإنكليزي المشهور[1]، ومنهم ذلك الفيلسوف الطبيب السوري الكاثوليكي النشأة، المادي الكهولة، الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب إلينا كتاباً نشرناه في الجزء الأول من مجلد المنار الحادي عشر سنة 1326 هذا نصه:

مكتوب الدكتور شبلي شميل المادي في تفضيل محمد على جميع البشر

«إلى غزالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار

«أنت تنظر إلى محمد كنبي وتجعله عظيماً، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم ونحن وإن كنا في الاعتقاد «الدين أو المبدأ الديني» على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع، والإخلاص في القول، وذلك أوثق بيننا لعرى المودة.

الحق أولى أن يقال

دع من محمد في سدى قرآنه ... ما قد نحاه للحمة الغايات

إني وإن أك قد كفرت بدينه ... هل أكفرن بمحكم الآيات

أو ما حوت في ناصع الألفاظ من ... حكم روادع للهوى وعظات

وشرائع لو أنهم عقلوا بها ... ما قيدوا العمران بالعادات

نعم المدبر والحكيم وإنه ... رب الفصاحة مصطفي الكلمات

رجل الحجا رجل السياسة والدُّهى ... بطل حليف النصر في الغارات

ببلاغة القرآن قد غلب النهى ... وبسيفه أنحى على الهامات

(1) قال السير وليام موير في كتابه (حياة محمد) بعد أن ذكر طائفة من صفاته ﷺ: وبالاختصار: فإنه مهما ندرس حياة النبي محمد ﷺ نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريرة وخُلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل.

obeikandi.com

مـن دونـه الأبطـال في كـل الـورى مـــن ســـابق أو حـــاضر أو آت

الإمضاء

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون كما قلنا، ولكن الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قليلون، وإن محمداً ﷺ لحجة عليهم فيما شهدوا له به وعزوه إلى استعداده وكسبه، وأسنده هو إلى وحي ربه، مع ما عُلم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع، ولكن شبلي شميل كان يزعم أنه نسج قرآنه من سدى الحكمة ولحمة الدين، ليقبله جمهور الناس، وقد بطل هذا الزعم بما بسطناه في هذا الكتاب، وأثبتنا به نبوته ﷺ وهو يتضمن الحجة على وجود الرب تعالى بل هو مجموعة حجج عقلية وطبيعية على الألوهية وعلى النبوة.

وسترى أيها القارىء بسط هذه الحجة في خاتمة هذا الكتاب، وأمهد السبيل لها بفصلين في إعجاز القرآن للخلق، من وجهين هما أوجه وأقوى مما ألف فيه علماؤنا المصنفات الممتعة وأحراها بإقناع أهل هذا العصر المستقلي الفكر، فأقول:

obeikandl.com